الفصل الخامس

الإمام الغزالى والفلسفة

قال الإمام الغزالى عن الفلاسفة :

رأيتهم أصنافاً ، ورأيت علومهم أقساماً ، وهم على كثرة أصنافهم يلزمهم وصمة الكفر والإلحاد ، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين ، وبين الأواخر منهم والأوائل تفاوتٌ عظيم فى البعد عن الحق ، والقرب منه .

اعلمْ : أنهم ـ على كثرة فِرَقهم ، واختلاف مذاهبهم ـ ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

ـ الدهريون .

ـ والطبيعيون .

ـ والإلهيون .

الصنف الأول : الدهريون ، وهم طائفة من الأقدمين ، جحدوا الصانع المدبِّر العالم القادر ، وزعموا أن العَالَـمَ لم يزل موجوداً كذلك بنفسه ، وبلا صانع، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان ، وكذلك يكون أبداً ـ وهؤلاء هم الزنادقة .

والصنف الثانى : الطبيعيون ، وهم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات .

وأكثروا الخوض فى علم تشريح أعضاء الحيوانات ؛ فرأوا فيها من عجائب صنع اللَّه تعالى ، وبدائع حكمته ، ما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم

مُطَّلع على غايات الأمور ومقاصدها . ولا يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالعٌ، إلا ويحصل له هذا العلم الضرورى بكمال تدبير البانى لبنية الحيوان ، لا سيما بنية الإنسان .

إلا أن هؤلاء - لكثرة بحثهم عن الطبيعة ـ ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم فى قِوَام قوى الحيوان به ، فظنوا أن القوة الفاعلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضاً ، وأنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم ثم إذا انعدم فلا يُعقل إعادة المعدوم ، كما زعموا ، فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود : فجحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار ، والحشر ، والنشر ، والقيامة ، والحساب ، فلم يبقَ عندهم للطاعة ثواب ولا للمعصية عقاب ، فانحلَّ عنهم اللجام ، وانهمكوا فى الشهوات انهماك الأنعام .

وهؤلاء أيضاً زنادقة ؛ لأن أصل الإيمان هو : الإيمان باللَّه واليوم الآخر ، وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر ، وإن آمنوا باللَّه وصفاته .

والصنف الثالث: الإلهيون ، وهم المتأخرون منهم ، مثل « سقراط » وهو أستاذ « أفلاطون » ، و « أفلاطون » وهو أستاذ « أرسطاطاليس » .

و«أرسطاطاليس» هو الذى رتَّب لهم المنطق ، وهذَّب لهم العلوم ، وحرَّر لهم ما لم يكن محرَّراً من قبل ، وأنضج لهم ما كان فجًّا من علومهم .

وهم- بجملتهم- ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية ، والطبيعية ، وأوردوا فى الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم، وكفى اللَّه المؤمنين القتال بتقاتلهم .

ثم رد «أرسطاطاليس» على «أفلاطون » و« سقراط » ومن كان قبله من الإلهيين ، ردًّا لم يقصِّر فيه حتى تبرَّأ منهم جميعهم ، إلا أنه استبقى أيضاً من رذائل كفرهم وبدعتهم ، بقايا لم يوفق للنزوع عنها، فوجب تكفيرهم ، وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الإسلاميين (كابن سينا والفارابى وأمثالهما) .

على أنه لم يقم بنقل علم «أرسطاطاليس» أحد من متفلسفة الإسلاميين

كقيام هذين الرجلين ، وما نقله غيرهما ليس يخلو من تخبيط وتخليط ، يتشوش فيه قلب المطالع ، حتى لا يُفهَم . وما لا يُفهَم : كيف يُرَدُّ أو يُقبَل ؟.. ومجموع ما صَحَّ عندنا من فلسفة أرسطاطاليس - بحسب نقل هذين الرجلين - ينحصر فى ثلاثة أقسام :

١ ـ قسم يجب التكفير به .

٢ ـ قسم يجب التبديع به .

٣ ـ قسم لا يجب إنكاره أصلاً ، فلنفصِّله .

ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً يجب تكفيرهم فى ثلاثة منها ، وتبديعهم فى سبعة عشر .. ولإبطال مذهبهم فى هذه المسائل العشرين صنَّفنا كتاب «التهافت».

أما المسائل الثلاث فقد خالفوا فيها كافة المسلمين ، وذلك فى قولهم :

١ - إن الأجساد لا تُحشَر ، وإنما المُثاب والمُعاقَب هى الأرواح المجرَّدة ، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية .

ولقد صدقوا فى إثبات الروحية ، فإنها كائنة أيضاً ، ولكن كذبوا فى إنكار الجسمانية ، وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به .

٢ ـ ومن ذلك قولهم إن اللّه (سبحانه وتعالى) يعلم الكليات دون الجزئيات . وهذا أيضاً كفر صريح ، بل الحق أنه ﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمٰوَاتِ وَلَا فِى الأَرْضِ﴾[١].

٣ ـ ومن ذلك قولهم بِقِدَمِ العالم وأزليته ؛ فلم يذهب أحد من المسلمين إلى شىء من هذه المسائل .

وأما ما وراء ذلك : من نفيهم الصفات ، وقولهم إنه عليم بالذات لا بعلم زائد على الذات ، وما يجرى مجراه ، فمذهبهم فيها قريب من مذهب « المعتزلة».

* * *

---

(١) سورة سبأ : ٣ .

وقد يتساءل إنسان : إذا كان الأمر كذلك فَلِمَ انتشرت العلوم الفلسفية فى العالم الإسلامى ؟

يقول فى ذلك الحافظ عماد الدين ابن كثير فى تاريخه ، سنة ٦٨٧هـ : « بعد أخذ التتار بغداد عمل الخواجا نصير الطوسى الرصد ، وعمل دار حكمة فيها فلاسفة لكل واحد فى اليوم ثلاثة دراهم ، ودار طب فيها للحكيم درهمان، وصرف لأهل دار الحديث لكل محدِّث نصف درهم فى اليوم ؛ ومن ثم فشا الاشتغال بالعلوم الفلسفية وظهر » .

* * *

والفلسفة التى نعنيها هنا ، إنما هى المحاولات المستمرة التى بدأت منذ العهد اليونانى القديم ولا تزال ـ لبناء «ما وراء الطبيعة» على العقل ، إنما هى المحاولات العقلية لاختراع ما وراء الطبيعة وابتداعه ، بحيث يأخذ العقل حريته فى الإثبات والنفى ، غير متأثر إلا بمقاييسه هو التى يفرضها . وإذا كان العقل قد اشتغل بالطبيعة والرياضيات ، وإذا كانت الطبيعيات والرياضيات قد أُدخلت فى الفلسفة كأجزاء لها فإن الهدف الأول للإمام الغزالى إنما هو جانب ما وراء الطبيعة .

ومما لا شك فيه أن العقل قد أنتج ثماراً يانعة فى الطبيعيات والرياضيات ، لقد أقام القواعد المحكمة ونظَّم المبادئ المتقنة وانتهى به الأمر إلى أن شيَّد الطبيعيات والرياضيات على أسس متينة : وكان الأمر كذلك فى هذين الميدانين لأن العقل يعمل فى دائرة اختصاصه ، ودائرة اختصاصه إنما هى الماديات والمحسوسات ، أو ما يتمثل فيهما حينما يوجد خارج الذهن كالرياضيات .

وغرَّ هذا النجاح قوماً ، فاعتقدوا أن فى استطاعة العقل أن يجول فى كل ميدان : فى استطاعته أن يجول فى الطبيعة وفى ما وراء الطبيعة ، فى العالم وفى ما وراء العالم ، فى المادة والمجرَّدات ، فى عالم الشهادة وفى عالم الغيب ؛ وكانت

النتيجة أن أقحموا العقل فى عالم ما وراء الطبيعة ؛ فكانت الفلسفة الإلهية العقلية ، وكان الإخفاق التام للعقل فى هذا الميدان .

وهذه الفلسفة العقلية التى تبحث فى الغيب ، إنما هى انحراف عن الطريق المستقيم ، وهذا الانحراف حديث العهد نسبيًّا ؛ فهو يبتدئ كما قلنا بالعهد اليونانى ، وأشهر مَنْ تولَّى كِبْـرَهُ فى ذلك العهد إنما هو « أرسطو » .

وأرسطو هذا الذى يعتبره بعض المؤرخين أكبر عقلية فلسفية ظهرت فى التاريخ ، هو أيضاً أشهر الذين انهار مذهبهم فى عالم ما وراء الطبيعة ، وكان إخفاق عقله الكبير هنا فيما يختص بمعرفتـه الغيب من أوضح الأدلـة على أن عالم الغيب أسمى من أن يتناوله العقل البشرى الخَطَّاء .

ولقد كانت الاعتراضات على مذهبه قوية عامة شاملة حتى إن تلاميذه وهم فلاسفة دَبَّ اليأس فى نفوسهم من إقامة عالم ما وراء الطبيعة على أساس العقل فلم يمكنهم أن يردوا على الاعتراضات ورأوا أنه إذا كان أستاذهم قد أخفق هذا الإخفاق فى مذهبه عن عالم الغيب فإنهم سيخفقون من باب أَوْلَى لو حاولوا إقامة مذهب فى الإلهيات جديد . يقول الأستاذ « سانتلا نا » بعد أن ذكر الاعتراضات على مذهب أرسطو :

« إن ذلك حمل التلامذة بعد موته على الإياس من الإلهيات والتفرُّغ إلى علم الطبيعة ، وعلم الأخلاق ، اختصوا بهما فى القرن الثالث قبل الميلاد، حتى لُقِّبوا بالطبيعيين سِيَّما شيعة «ثاوقرسطيس» و«استواثون» اللذين خَلَفَا أرسطو فى رياسة «دار العلم» التى كانت للمشَّائين بأثينا » اهـ..

انصرف- إذن - تلاميذ أرسطو ـ يائسين ـ عن عالم ما وراء الطبيعة إلى عالم الطبيعة والأخلاق ، وإذا كان مذهب زعيم العقليين قد انهار ، فمن باب أَوْلَى أن ينهار مذهب غيره ممن هم أقل منه ، ولكن هذا الانهيار المتتابع للمذاهب العقلية فى الإلهيات لم يصرف الناس عن هذا النمط من المحاولات ، التى مآلها دائماً : الإخفاق .

وتتابعت هذه المحاولات فى الشرق والغرب إلى عهد الإمام الغزالى .. ورأى الإمام الغزالى - ببصيرته النفَّاذة وبحدسه المُلهم - أن هذا الطريق الذى انحرفت إليه الفلسفة وسارت فيه إنما هو طريق مسدود ، ولا بد - إذن - من محاربة هذا العبث الذى يسمُّونه « الفلسفة العقلية » ، لا بد من محاربته لأسباب عدة ، فهو إضاعة للوقت ، وهو تشكيك للبشرية ، وزعزعة للإيمان ، وليس له من نتيجة إلا التفرُّق والاختلاف ، وتوهين المقدَّسات .

على أنه إذا كان يلتمس لليونان العذر فى معالجة هذا الموضوع ، لعدم وجود الوحى المعصوم ، الذى يهديهم الطريق ، وينير لهم الجادَّة ، فليس هناك من عذر للمسلمين وبين يديهم رسالة السماء ممثَّلة فى «القرآن » ..

وهو ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾(١) .

﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(٢) .

وقد تكفَّل اللَّه بحفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(٣) .

ليس للمسلم ، إذن ـ فيما يرى الإمام الغزالى ـ أن يحاول ابتداع عالم ما وراء الطبيعة ، أو اختراعه عقليًّا ، ولكن المسلمين أخذوا فيما أخذ فيه اليونان واعتمدوا على العقل وألقوا قيادهم إليه ؛ فتفرقوا مذاهب شتَّى وطرائق قدداً ، وأصبح للفلسفة - برغم هذا - بريق يخطف الأبصار ، ولمعان كالسراب يجذب الكثيرين .

لابد -إذن - من التشمير عن ساعد الجد ، وهدم هذا الزيف ، وإبطال هذا السحر ؛ حتى يعود الناس إلى الاعتصام بحبل اللَّه وعدم التفرُّق .

وحمل الإمام الغزالى على الأساس الذى تقوم عليه الفلسفة وهو « العقل »

---

(١) سورة هود : ١ .

(٢) سورة فصلت : ٤٢ .

(٣) سورة الحجر : ٩.

حملة عنيفة وهجم عليه هجوماً قويًا ، ولم يفتر قَطُّ عن مهاجمته منذ أن ألَّف كتابه القيِّم «تهافت الفلاسفة» إلى أن انتهت به الحياة ، ولقد كان كتابه «تهافت الفلاسفة» محاولة موفقة كل التوفيق ، جريئة كل الجرأة ، طريفة كل الطرافة ، وما كان المقصد الأول والهدف الأساسى لهجومه هدم الآراء فى نفسها ، فبعضها صحيح ، موافق للدين ، ومع ذلك فقد هدم الإمام الغزالى المنهج العقلى ، الذى استندت إليه هذه الآراء ، فـ «خلود النفس» مثلاً رأى يقول به الغزالى ، ويقول به الفلاسفة ، ولكن الإمام الغزالى حمل معوله على طريقة الفلاسفة فى إثبات خلود النفس ، وهدم أدلتهم ، وضرب بمعوله فيها فانهارت وتهافتت ، ومع ذلك فقد كان هو مؤمناً بهذا الخلود ، إنه لم يلتزم فى هذا الكتاب إلا تكدير مذهبهم ، والتعبير فى وجه أدلتهم بما يبيِّن تهافتهم .

ومقصوده : تنبيه مَنْ حَسُنَ اعتقاده فى الفلاسفة ، وظن أن مسالكهم نقية من التناقض ، ببيان وجوه تهافتهم.

ويقول : أنا لا أدخل فى الاعتراض عليهم ، إلا دخولَ مُطالِبٍ مُنكِرٍ ، لا دخولَ مُدَّعٍ مُثْبِتٍ ، فأُبطل عليهم ما اعتقدوه ، متطوعاً بإلزامات مختلفة :

فأُلزمهم - تارةً -: مذهب المعتزلة .

وأخرى : مذهب الكرامية .

وطوراً : مذهب الوقفية .

ولا أنهض ذابًّا عن مذهب مخصوص .

ويقول الأستاذ «بلاسيوس» بحق : « إن الغزالى حينما سَمَّى كتابه (تهافت الفلاسفة) كان يريد أن يمثِّل لنا أن العقل الإنسانى يبحث عن الحقيقة ويريد الوصول إليها كما يبحث البعوض عن ضوء النهار ، فإذا أبصر شعاعاً يشبه نور الحقيقة انخدع به ، فرمى بنفسه عليه ، وتهافت فيه ، ولكنه يخطئ مخدوعاً بأقيسة منطقية خاطئة ؛ فيهلك كما يهلك البعوض .

فكـأن الغزالى يريـد أن يقول : إن الفلاسفة خُدعـوا بأشياء أَسرعـوا إليها بلا إعمال رويَّة ؛ فتهافتوا وهلكوا الهلاك الأبدى » ا هـ.

وفى كتاب «التهافت» هدم الإمام الغزالى عقليًّا ما بناه الفلاسفة معتمدين على عقولهم وتهافتت الآراء تحت قلمه ، ومن الحق أن نقول : إن أدلة الإمام الغزالى فيها من القوة ومن الرسوخ بحيث لا تقلُّ -من وجهة النظر العقلية - عن أدلة الفلاسفة العقليين .

وما من شك فى أن حملة الإمام الغزالى ، إنما كانت موجَّهة أولاً وبالذات إلى العقل ، والقضية المتنازع عليها هى قضية استطاعة العقل الوصول إلى المعرفة اليقينية فى عالم « ما وراء الطبيعة». الإمام الغزالى ينكر ، ويُثبت إنكاره بالإخفاق المتتابع للفلاسفة ، ويثبته أيضاً بهدم العقل لكل ما بناه العقل نفسه فى هذا الميدان.

التعارض- إذن -بين الإمام الغزالى والفلاسفة إنما هو تعارضٌ كلِّىٌّ ؛ ولذلك فإن المحاولات الكثيرة المتعددة لتصحيح آراء الفلاسفة ، أو لتصحيح بعضها ، ونقد الإمام الغزالى فى حملته على هذا الرأى أو ذاك ، والانتصار لوجهة النظر الفلسفية فى هذه أو تلك . . إن ذلك كله غير مُجْدٍ فى القضية التى أثارها الإمام الغزالى ، وهى محاولات جَهِلَ القائلون بها موضوع النزاع على حقيقته أو تجاهلوه .

ومن هنا كانت محاولة « ابن رشد » ـ وهو أكبر المدافعين عن الفلاسفة ـ تصويب آراء الفلاسفة فى كتابه «تهافت التهافت» عملاً غير مفيد فى حسم النزاع ؛ إذ إن دائرة النزاع الحقيقية إنما هى الأساس الذى بُنيت عليه الآراء وليست الآراء نفسها . والواقع أن فكرة الإمام الغزالى لا تزال - حتى الآن - تتسم بالسهولة والوضوح والقوة : لقد أخفقتم أيها العقليون .. والدليل على إخفاقكم اختلافكم المستمر ، هذا الاختلاف الذى أصبح وكأنه القاعدة والمبدأ العام .

وإذا أردنا فى النهاية تقدير مدى الآثار التى كانت ولا تزال ثمرة لفكرة الإمام الغزالى هذه فإن خير ما نفعل فيما يتعلق بذلك ، وخير ما نختم به هذه

الكلمة هو أن ننقل رأى الدكتور « محمد إقبال » وهو رأى يتسم بالرصانة والعمق .. يقول « محمد إقبال » فى كتابه «تجديد التفكير الدينى فى الإسلام » :

« على أنه لا سبيل إلى إنكار أن الدعوة التى نهض لها الغزالى تكاد تكون دعوة للتبشير بمبدأ جديد ، مثلها فى ذلك مثل الدعوة التى قام بها « كانْت » فى ألمانيا فى القرن الثالث عشر (الميلادى) .

ففى ألمانيا ظهر المذهب العقلى لأول عهده حليفًا للدين ، ولكن سرعان ما تبيَّن أن جانب العقيدة من الدين لا يمكن البرهنة عليه حسيًّا ؛ فكان الطريق الوحيد -إذن-: أن تُمحَى العقيدة الدينية من سجلِّ المقدَّسات .

وقد جاء مع محو العقيدة مذهب المنفعة فى فلسفة الأخلاق ؛ ولذا مكَّن المذهب العقلى من سيادة الإلحاد .

تلك كانت الحال فى ألمانيا عندما ظهر « كانْت » ، وكشف كتابه «العقل الخالص » عن قصور العقل الإنسانى ، فهدم بذلك ما بناه أصحاب المذهب العقلى من قبل ، وصدق عليه القول بأنه كان أَجَلَّ نِعَمِ الله على وطنه .

وإن التشكُّك الفلسفى الذى اصطنعه الغزالى -على تطرُّفه بعض الشىء- قد انتهى إلى النتيجة نفسها فى العالم الإسلامى إذ قضى ذلك على المذهب العقلى الذى كان موضع الزهو ، على الرغم من ضحالته ، وهو المذهب الذى سار - فى نفس الاتجاه إليه- المذهب العقلى فى ألمانيا قبل ظهور « كانْت» .

غير أن هناك فارقاً مهمًّا بين « الغزالى » و «كانْت» ؛ فإن « كانْت» تَماشَى مع مبادئه تماشياً لم يستطع أن يُثبت أن معرفة الله ممكنة .

أما الغزالى فعندما خاب رجاؤه فى الفكر التحليلى ؛ ولَّى وجهه شطر الرياضة الصوفية ؛ وألفى فيها مكاناً للدين قائماً بنفسه .

وبهذه الطريقة وُفِّقَ الغزالى لأن يجعل للدين حق الوجود مستقلاً عن العلم ، وعن الفلسفة الميتافيزيقية » .

* * *